عبقرية الفكر العربي وشموله يحدوان الى خط نهج جديد في تدوين تاريخ الأدب العربي

للأستاذ بهجة الأثري
عضو المجمع العلمي العربي – بغداد

لما بدأ (العرب) التدوين فى القرن الاول للهجرة، جروا فيما دونوا من شيء مع الفطرة بعيدين من التكلف والتعمل والتعقيد ، وعنوا فى كتابة ادبهم باثبات الرواية – وهي مصدره الاول الاصيل – فى امانة بالغة .. تزمتوا فيها تزمتا شديدا ، التزاما للصدق ، وتقديرا لما فى أعناقهم من هذه الامانة وما يجب عليهم من ادائها سالمة الى الاجيال .

ذلك شأن تفردوا به بين الامم قاطبة ، ولم يرو لنا التاريخ ضريبا لهم فيه .

وتحت سلطان هذه النزعة الامينة الصادقة المتشبثة ، على نفوسهم واقلامهم ، حرروا نصوص الروايات والآثار ، معارضة وضبطا وتفسيرا ؛ ثم حفلوا باخبار من صدرت عنهم هذه النصوص والآثار، من شعراء وادباء ، فدونوها فى ايجاز تارة واطناب تارة ، ونقصوا السير ، واحصوا ما انتج فى كل فن من فنون الادب وكل لون من الوان الثقافات .. سالكين فى ذلك مسالك مختلفة وان تقاربت فى الغايات ، على ما هو مشاهد محس فيما خلفوا من تراث زاخر عظيم على توالي العصور ، وما برح الخلف يتابع السلف على نهجه ، والجيل يقفو اثر الجيل ، ويتوفر على تدوين الآثار القيمة مما يجد من ادب وعلم ، فى أزمانه واقاليمه ، ما دنا منها وما بعد ، على قدر ما يتسع له الذرع ، ويتوافر من مادة التاليف ؛ وما فاتهم حين استبحروا فى الحضارة والعمران ، واتسعت معارفهم ، أن يستجدوا الطريف الممتع الخصب من مذاهب النقد وطرائق الموازنة ، فيلونوا بها التاليف بالوان جديدة .. تكسبه القوة ، وتخلع عليه غلائل الجدة ومطارف الحسن والرواء .

وهكذا كان تدوينهم نتاج الافكار والعقول والضمائر ، تدوينا طبيعيا حرا ، طليقا من القيود الثقال ، تسجيلا ووصفا واحصاء ونقدا وموازنة، لم يخرجوا به فى معظم احواله عن الفطرة والطبع ، ولم يفلسفوه ، ولم يربطوا تاريخه بالاحداث ، وانما تركوا لمن شاء أن يفهم مما يقع له من آثاره ما يشاء ، وان يستنبط منها ما يستطيعه بالقدر الذي يسمو اليه ادراكه ، أو تحاوله ارادته ، فيقف عندما استنبط راضيا به أو ساخطا عليه ، او يتجاوزه فيستزيد منه ويسعى وراءه فى الآفاق القاصية من محيطاته وعببه العميقة ابلغ العمق ، والواسعة سعة ينقلب عنها البصر خاسئا وهو حسير . ذلك بان امتداد تاريخهم واختلاف تقلباته ، وانبساط رقعة الاوطان التي انتشروا على اديمها ما بين المشرق والمغرب ، وقد تنوعت طبائعها وامزجتها ، وتباينت فيها وجوه المؤثرات ، ثم كثرة ما انتجوا فى الحقب الطوال من ولائد الافكار ، وتعدد صوره ، وتنوع الوانه : كل هذا وغير هذا ، لم يأذن بتدوين ادبهم على غير هذا المنحى الذي ذكرت . وهو اذا اذن به استدعى طاقات قوية قوة خارقة : تعين على تقصي آثاره ، واستحضار

مضامين هذه الآثار ، وما اختلف منها وما تشابه ، وتنسق ذلك كله تنسيقا علميا ، وتدرسه دراسة جماعية ، متأملة مستأنية ، نقاشا وتحقيقا يخلصان بها الى نتائج تصدق على هذا الادب فى جملته وتفصيله ؛ ولم يتوافر شيء من هذا ، ولا أحسبه سيتوافر بعد زمن طويل أيضا ، فليس حدوث مثله بالطلب السهل الميسور . وهذا باب واسع ينفذ منه الى آفاق بعيدة ، وليس يعنيني منه ها هنا غير اللمحة الدالة مما يقال فيه .

ولما كان هذا العصر الحديث ، وحدث الاتصال فيه بأوربة ، وجدت آداب الفرنجة مدونة ومؤرخة بأسلوب مغاير لهذا الاسلوب العربي . وهو فى جملته منطق بنطاق التاريخ السياسي عندهم ، وموصول به ، ومقسوم الى عصور متميزة ، جعلت لكل عصر منها معالم من الاحداث الكبرى تفصل بينها ، ووصل فيها افق الفكر وانتاجه بافق السياسة والاجتماع والاقتصاد ، قصدا الى تبين المؤثرات فى الآثار ، وتعرف الظلال والالوان التي تتخالف فيها من عصر الى عصر تبعا لذلك .

ولقد ذهب بريق هذا المذهب فى تدوين تاريخ الادب بأبصار كتاب العرب المحدثين منذ أول الاتصال بأوربا ، وبفرنسا خاصة ، كما يكون الشأن عادة عند الالتقاء بشيء جديد ، فبادروا الى اصطناعه قبل ان يفحصوه ، ويتعمقوا فى درسه ، ويلاحظوا الفرق بين طبيعة أدب أمة واخرى ، ويتدبروا القياس كما ينبغي أن يكون التدبر لقانون ما يراد تطبيقه ، وجروا وراءه سراعا مهطعين ، ينقلون أقلامهم على آثار ما رسمه الاوربيون ، فيما حاكوهم به من كتابة موجزات فى تاريخ الادب العربي ، غالبها تعليمي ، او مفصلات غلبت عليها طبيعة الفهرسة وقلت حظوظها من التقصي والغوص الى الاعماق ، ولم يكتبوا فيه في حقيقة الامر — الا بقدر ما يحسو العصفور بمنقاره من نغب من البحر المحيط . وقسموا الادب العربي فيما كتبوا من ذلك وفاقا لهذه الطريقة الاوربية الى عصور تاريخية ؛ اخضعوا جملة انتاج العقل العربي فيها لعوامل السياسة خاصة ، ظانين — وظننت ظنهم فى مطلع الشباب — ان هذا المذهب يصلح ان يكون فى جملته وتفصيله مذهبا عاما ، ويحسن تطبيقه على الادب العربي وتدوين تاريخه كما يدون التاريخ العام ، تدوينا يجسد اطواره من عصر الى عصر ، ويعطي من الاحكام الجامعة والنتائج المرضية معطيات قيمة تطابق الحقيقة والواقع من أمره !

ولا ريب عندي فى أن هذا المذهب فى حد نفسه — بقطع النظر عن امكان الانتفاع بتطبيقه فى كتابة تاريخنا الادبي ، بأبعاده واغواره وازمانه — هو مذهب موفور الحظ من مسحة التفكير والتنظيم ، وعليه طابع الاصالة المنهجية التي تحدث فى البحث اشياء من جمال التبويب والتنسيق ، وتجمع النظائر والاشباه ، وتوضح الاقدار المشتركة بينها توضيحا ما ، لا شك فى غنائه وجدواه عند ارادة ادراك علاقة الآثار بالمؤثرات ، فيما يمكن حصره والسيطرة على ابعاده من شيء ، وحين تتسنى الاحاطة التامة بوسائله ، وتتيسر القدرة التي تستطيع الغوص والاستنباط والخلق .

ثم هو مذهب توائم طبيعته طبيعة الآداب الاوربية عامة ، بوحداتها المتعددة والصغيرة ، وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وتاريخيا ، وانفصالا لغويا وادبيا من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة ، وادبها الخاص ضمن حدودها الضيقة ، ونحو ذلك من اشياء يسهل معها تشخيص السمات وتبين المميزات .

ولكن هل كان الادب العربي فى مناشئه وطبيعته كذلك ؟ ومتى ؟ وانى ؟ فنخضع تدوين تاريخه العام لهذا المذهب على هذا النحو بحيث نبلغ به النتائج الصحيحة التي تصدق عليه ؟ جواب هذا التساؤل عندي ، ولست اتعجل به من غير تدبر : « لا » مشحونة بكل دلالة نفيها القاطع ، متمثلا فى حرفيها المستعليين الشامخين !

فلا ريب أن الادب العربي يتميز بخاصتين عظيمتين ، باين بهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها ايضا ، فامتنع بهذه المباينة — فيما ارى — اخضاعه اخضاعا تاما لما اخضعت له من قانون دونت به تواريخها الادبية العامة .

اما احداهما ، فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من أوطان ترامت ما بين بلاد الغال فى الغرب وتخوم الصين فى الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالا واليمن وحضرموت جنوبا ، وما حظي به من مشاركة عبقريات من مختلف الشعوب فى بنائه ، وما استوى بذلك لآفاقه من ابعاد واغوار ، وما زخر فيه من آثار متنوعة اذا استطاع الاحصاء لشيء ما ان يحيط بافراده حصرا ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها فى حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة .

واما الاخرى ، فتلك هي طبيعتـه الخاصـة ، ومناشئه ، وينابيعه التي تشـق مجاريهـا الدافقـة طرقها فيه الى « لا نهايتها » ، وترفده دائما بما يمنحه استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود امام الاعاصير ، بل القدرة على التأثير فى مجاري أحداث الحياة نفسها ، فيفرض عليها سلطانه كما سنـرى فيما يأتي من حديث .

ونحن اذا تدبرنا هذا كله بازاء هذا الاسلـوب الاوربي فى تدوين تاريخ الادب مقسمـا الى عصـور سياسية .. اتضحت لنا صورة الصعوبة فى تطبيقه على ادبنا ان لم نقل بتعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنـا هذه المعالم الفاصلة بين ادب عصر وآخر ، فى ضعفها ، اشبه بالحدود والحواجز التي اقامتها دول الاستعمار فى الوطن العربي ، واتخذت منها « مناطق نفوذ » لها، تتحكم فى مواردها ومصادرها ومصايرها على نحو ما تشاء . ولكن هذه الحدود والحواجز ، كانت امـام مور الامة العربية اضعف من ان تثبـت لـه او تحول دون الاماني القومية ان تتلاقى على هدى من امرهـا العظيـــم .

كذلك كان شأن هذه التقاسيم السياسية فى تحديد طبيعة الادب العربي ، فانها حين فرضت عليه، عجزت ــ من هذا المنطلق المقيد ــ عن الوفاء بتمثيل الصور الصحيحة لابعاده واغواره فى مختلف بيئاتـه وعهود تاريخه .

ونحن حين نمضي فى ملاحظة الاحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدها تجري ابدا متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم اجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كـل حادث منها ينشـأ وهو منفعـل باسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ، فمـا يكون فى يومنا من حادث جديد ، فلاحـداث الامس الدابر اثر فى حدوثه ، وله بها اتصال وثيق مباشر ؛ وان بدا للنظرة القاصرة قائما بنفسه ، وما يكون من احداث فى غد آت انما هو مرتبط باحداث يومنـا كذلك ، وهكذا الشأن كله فى أحداث الحياة ؛ تدور فى هذه الحلقة المفرغة دوران الافلاك فى مساراتها .

ثم نمضي فى ملاحظة تولد الافكار ؛ فنجد الفكر الانساني ــ اي فكر كان ومتى واين وكيف ــ لا ينبع من الاذهان ابتداء ، وانما ينبع من أفكار تقدمتـه وولدته ، وان خـرج احيانا مباينـا لها في الصـورة والشكل ، او بدا منفصما عنها فى النزعة والمعنـى والغاية . وهو كما يكون مؤثرا فيما يحدث بعده من افكار ، يخضع لعوامل شتى سبق زمن وجودها زمن ظهوره ومنها تولد من بعد وتركب فى صورة من الصور. وعلى هذا النحو تتلاحق اجزاء السلسلة الزمنيـة متماسكة ، وتتلاحـق كذلـك الافكار آخـذا بعضهـا برقاب بعض ، وتتتابع ، ويتولد فكر من فكر ، وتنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، فتظهر أثرها في حياته العامة وفى جملة افكاره وآدابه . على هـذا قام قانون الوجود ، واطردت سننه منذ ازله ، وسيطـرد على ذلك كذلك الى ابده ، فما ثم من شيء فيه الا يولد من شيء سابق له ، ثم ينمو رويدا حتى يبلغ نضجه فى الوقت المقدر له ، فيظهر فيه سويا يحسـب الساذج حصاده ابن يومه كما يتوهمه عنـد ظاهر عيانـه ، ولا يكاد يذكر اوائله ومناشئه فى زمن سبق ونبت فيه من بـــذاره .

ثم ، هذه الاحداث السياسية التي تحدث فى زمن ما ، انما تحدث آثارها الحقيقية فى الحياة عامة ، وفي المعاني الانسانية خاصة ، بله الصور والاشكال ، في اناة وبطء ، فلا يظهر منها ما يظهر الا بعد ريث من الزمن يمضي على لقاحها ، كما يكون من شأن المواليد .

وهي ــ بعد ــ احداث متغايرة ، تعتري الحياة ، فتحدث لذلك آثارا متغايرة ، تتشابك فيها المؤثرات ، فيتعذر تبين عناصر كل حـدث منها على انفـراده ، وتعرف مدى عمله فى خلق تلك الآثار .

واذا كان الامر كله كذلك فى جملة شأنه ، ولست احسبه يكون غير ذلك ، فلا جرم يكون مؤدى هـــذه التقاسيم للعصور السياسية ــ حيـن نفرضهـا على الادب العربي ــ اننا ندخـل بها عليه فـسـادا ــ واي فساد ــ ما فى ذلك ريب ، اذ نضيف الى عصر لاحـق نتاج عصر سابق حمل فى نفسـه كل عوامله ومؤثراتـه وخصائصه ؛ ونحن ــ الى هذا ــ لا نملك الوسيلة الى تحليل عناصر كل حدث نتخيل له تأثيـرا فى الصـور والمعاني ، والى تشريحهـا لادراك عملهـا فى الآثـار الادبية ، وتمثيلها فى شكل ما من الاشكال ، يصف حكما عاما صحيحا يصدق عليها ولا يفيل ، فنجـور بالاول على الاشياء ، ونفتئت على الحقائق ، ولا ينتهي بنـا الثاني الى فائدة مستخلصة توضح ما نحاول تبينه من السمات الصحيحة من خلال ركام الاحداث .

واذا نحن وسعنا الافق ، ومددنا ابصارنـا الى خط ابعد واعمق ، وفحصنا طبيعة تغليب العوامـل السياسية فى هذه التقاسيم ، واعطائها صفة السلطان المطلق او شبه المطلق الذي يتحكم فى مصاير الاشياء ،

وتفهمنا مؤدى ذلك .. انتهينا منه الى تصوير هـذا الادب فى معظم حالاته ذنبا وراء السياسات لاصقا باعجازها ، او عبدا لها قنا ، مجرورا ابدا بخطمها ، ومصرفا بهراواتها ، أو محبوسا على الخسف بأجرتها، كما تريد له ، لا كما يريد ، دون أن تكون له فى نفسه قوة يمتنع بها عن قبول هذه التبعية الذليلة ، أو هوى فى التمرد على توجيهاتها له وسيطرتها على حريته .

وانى يكون ادب – تستقيم له حياة وترتقي به لغة – حين يكون هذا شأنه من التبعية الذليلة وفقدان الحرية ؟ وهل عرف الادب العربي الاصيل منطلقا له من غير هذه الحرية ؟ وهل تنفس الا من جوانها الطلقة نواسمها الصافية المنعشة للارواح والاكباد ، والباعثة القوة والنشاط فى عروقه ؟

نخلص من هذا الى اننا نجد انفسنا من هذا المذهب بازاء قانون خاص ان صلح لكتابة تاريخ عام به لاداب هذه الوحدات الاوربية الصغيرة ، فان التجارب فى تطبيقه فى تدوين تاريخ أدبنا ، قد انتهت بنا ولا ريب الى الاخفاق فى ابراز قسماته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة ، وتوضيح أصالته وهي تعلو على الخلاف والشبهات .

فلا مندوحة لنا اذن من اطراحه وتركه الا ما فيه من مسحة التفكير والتنظيم ونحوهما ، ومن التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقق صورته الصحيحة على وجه أفضل واكمل واصدق .

فما هذا القانون الجديد الذي ادعو الى التماسه؟ ما روحه ؟ وما طبيعته ؟ واين نلتمسه ؟

بديهي أن ادب كل امة تحكمه قوانين لغتها ، وروحها المفرغ فى هذا الادب ، قبل ان تحكمه المؤثرات الخارجية ، وكل ادب أصيل كالادب العربي – يستمد وجوده واستمراره من روح الامة بعيدا عن التقليد والمحاكاة لاي ادب كان – يتميز عادة ، بشخصية قوية، قوامها الوضوح والصدق ، وبلاغها التأثير والابداع .

واللغة العربية – وهي وعاء العقل العربي ومبدعاته – تتميز بخصائص نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها خلال الآماد التي اجتازتها من لدن ولدت مع العرب الى أن بلغت بهم كمال نضجها ، واستوت فى أروع صورها البلاغية التي مثلت الاعجاز فى القرءان الكريم ، فعلت بذلك على مجرد « التعبير عن المقاصد » كما يقال فى تعريف اللغات ، وانتهت بهذه الخصائص الى تحمل معاني الوجود ومبدعات العقول .

ولن يختلف عالمان فى انها **تميزت من هذه الخصائص أولا بهيآتها وموازينها وقوانين اشتقاقها ، وتميزت ثانيا بكمال مخارج حروفها مهموسة او مجهورة ، وبروعة موسيقاها وحلاوة نغمها ودقة جرسها ، وتميزت ثالثا بهذا الفيض الغزير من مادتها وفرط غناها من الالفاظ الموضوعة بازاء مختلف المعاني وادق الفروق** . وهي بكل اولئك تسلس – فى طواعية تامة – قياد التعبير عن التشكلات التي تعرض للنفس الانسانية فى المنشط والمكره وشتى الاحوال ، وتساوق اغراضها ، وتتلون بألوانها جميعا ، فتلين وتعذب حتى لكانها لا تعرف غير اللين والعذوبة فى مثل الغزل والحنين والمواجد والاشواق، وتشتد وتصلب فى مواطن العنف القوة ، فتبدو وكأن الفاظها وجملها قد قبست من لهب النار ، أو قدت من معادن الحديد ... وهي فى هذا وغيره ، تجري دائما على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل فى صميمه ، وهكذا **تتشكل باشكال الاشياء ، وتبرز مع كل حالة موقعة بايقاعها وحركة روحها توافقا وانسجاما** كما تتناسق وتتوافق فى الرقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق « الصفاقات » أو نقرات اليد على « الطار » بحساب .

ولست ادري اكان ابن حمديس – شاعر صقلية – لمح فى راقصته خاصية اللغة العربية هذه فى توافق ايقاعها ، ام لمح فى اللغة العربية خاصية رقص الراقصة فى توافق لقطات رجلها ونقرات الطار ... حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها
حساب يد نقرت طارها ؟
هذه واحدة .

واخرى ان اللغة العربية – الى هذه الخاصية الرائعة بكل أوصافها وسماتها – تمتاز بشيء اكبر من هذا ...

تمتاز بالشحنات النفسية ، وطاقات الحياة النامية التي تعمل فى باطنها دائما فتغذيها وتقويها ، وتمنحها القدرة البالغة فى التأثير والابداع .

ذلك بما افرغته الامة العربية فيها ، فى آمادها الطويلة ، من قوة روحها ، ورهافة حسها ، ووقدة شعورها ، وحركة خيالها ، وعمق تصورها ، وسعة حريتها المكتسبة من طبيعة الصحراء ولانهاية الفضاء ، وما الى ذلك وغيره من اخلاق ومعان وتجارب ، ومن **مثل انسانية رفيعة ونبيلة افرغها كتاب الدعوة الاسلامية المعجز ، وادب النبوة الحي – وهما المثلان**

الاعليان لادب العرب – فى جملة الفاظها وتراكيبها ، ومعانيها ، ومدلولاتها ، فكانت منها كالجبلة (Protoplasm) فى خلايا الاجسام العضوية من نبات وحيوان .

هذه ثانية . واستطيع ان اقول فى جزم ووثوق انها **القانون الحي** الذي يحكم هذه اللغة العظيمة ، ويعمل فى ضميرها دائما ، ويجدد فى شرايينها وعروقها دمها الحار ما اختلف عليها الجديدان ، وما التزم اهلها قوانين الحياة والبقاء وادركوا مدى ارتباط حياتهم بحياة لغتهم . وهو قانون كما قلت قد أبدعه روح الامة ، ومنه اشتق ، ومن معطياته – وهي باب من البحث يستغرق الاعمار ويستنفذها قبل ان تبلغ تمثله او تلم به – هذا الادب الحي ما تجدد على تقلب الشمس طلوعا ومغيبا ، وهذه العلوم اللسانية وغيرها من علوم اسلامية واخرى دخيلة صيغت بهذه اللغة ، مما تعاونت الامم التي دانت بالاسلام على مشاركة العرب مشاركة صادقة اصيلة فى انتاجه وابداعه على امتداد الوطن الاسلامي الكبير ، وفى مختلف الازمنة ، وتمثلت فيه عبقرياتها فى اروع الصور .

ومن فعل هذا القانون فى **حياة اللغة العربية وامتدادها الى ما وراء وطنها الاول .. انها قد** اصبحت على وجه الزمان **مناط احترام الامم التي دانت بالاسلام** ، لانها لسان الدين ، فتبنوها أعظم تبن لشيء عرف فى التاريخ – وهي امم ذوات لغات واديان وعقائد شتى – منذ احسن العرب لقاءهم ايام تحملوا وحي السماء الى الابيض والاحمر والاسود على اديم المعمورة ، من غير تمييز عنصري من هذا التمييز الذي تمارسه السياسة الامريكية فى هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، وبلغوهم رسالته فاحسنوا التبليغ ، وهدوهم بمثلها ، وربما كان هؤلاء يحسون فى اعماقهم هذه المثل مبهمة ، فلا يكادون يتصورونها ، او يطلبون التعبير عنها فلا يجدونه ،**فعبرت لهم عنها هذه اللغة العربية تعبيرا وجدوا فيه زاد الارواح ، وري الاكباد ، وغذاء العقول** ، واحسوا اعمق الاحساس انهم اعطوا منها جزيلا جليلا ، فشغفوا به حبا ، وتعلقوا باللغة التي اقلت اليهم امانته ، فاطرحوا اديانهم وعقائدهم لدين الله ، **وتركوا لغاتهم (او كادوا) للغة العرب** ، ووجدوا لها فى مذاقهم حلاوة ، وفى اسماعهم جرسا ، لا عهد لهم بمثلها فى لغاتهم ، فاقبلوا عليها اقبالا منقطع النظير ، وقد اشتهر فيه كيف **انجذب شباب اسبانيا اليها** ، فتعلقوا بها تعلق الحب بل الهيام ، حتى رفع الآباء الذين لم ترتفع عن بصائرهم الغشاوات عقائرهم بالشكوى من هجر ابنائهم لغتهم اليها ، وكيف **سارعت امم فى الشرق والغرب لتدارسها** ، وكيف تمثلها اصحاب العبقريات خاصة فملكوا من ناصيتها ما كان يمتلكه اهلها الاصلاء منها ، وتناغوا بها ،**وابدعوا فيها روائع الآثار فى الشعر والنثر والفلسفة والحكمة ،** وفى كل علم اصلوه وفن مارسوه . وقد عاش ما كتبوه بلغة القرءان ، وسيعيش الى ما شاء الله ، **مصادر حية قوية** تثوب الى الانتفاع بها الاجيال بعد الاجيال . ولقد اوحت كثرة هؤلاء **العباقرة من الاعاجم فى الاسلام** الى ابن خلدون قولته المشهورة فى « المقدمة » : « **اكثر حملة العلم فى الاسلام كانوا من الاعاجم** » او كما قال ، ولم يزغ قلمه بها عن جادة الصواب ، وان خاله من غابت عنهم دلالتها جائرا ، ولست اتهم منهم مخاطبا بفهمه حين ادله على ما تشير اليه عبارته بحق من عظمة العرب والعربية ، ومن هذه العظمة انها **تمتص العبقريات من كل امة تتصل بها وتتذوقها لتبدع ابداعها للغة العربية دون لغاتها !!** وما انفك هؤلاء العظماء– الى جانب ابداعهم هذا لها على تراخي الايام– **يتناغون بها دون لغاتهم** ، وهو امر **لا يعرف نظيره في تاريخ العالم** ، ومن هذا التناغي عبارات عجيبة صدرت عنهم ، وركبت الينا اعناق الدهور ، تصف **عظمة العربية** فى نفوسهم ، ولا تغفل تقديس العرب . ومن روائع ذلك قول امام العربية فى عصره جار الله محمود الزمخشري التركي وهو يفتتح كتابه (المفصل فى النحو) : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لي أن انفرد عن صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز » .

ولست واجدا فى كلام كلمة احر واحلى وازكى من كلمة الفيلسوف الرياضي المؤرخ العظيم احمد بن محمد البيروني، من اهل خوارزم ، وهو يتمطق بحلاوة العربية ويقول : « **والله لان اهجى بالعربية احب الي من ان امدح بالفارسية » !**

ذلك فعل هذا القانون الذي يحكم اللغة العربية، والادب العربي ، فى حياتهما وانتشارهما . وقد دل عمله الدائب فى باطنهما انه قد ادى وظائفه بقوة ويقظة فى مختلف الاحوال : اداها كما ينبغي ان يكون اداء شيء حين كان السلطان السياسي الى العرب ، وكانوا القوامين على الحياة العامة فى الوطن الاسلامي كله من مشرقه الى مغربه .

واداها كذلك حين تعرضت الاوطان الاسلامية للحركات الداخلية الهدامة ، وللغزو من شرق ومن

غرب ، فمضى باللغة العربية الى غايتها غير قاعد بها عن عمل فى ادب او علم او فكر .

واداها على هذا النحو وذاك حين انتهى السلطان الى غير العرب ، لعصور طويلة خلت ، امتدت من سقوط بغداد فى يد المغول وزوال الدولة العباسية بذلك فى سنة 656 هـ الى عهدنا هذا الذي ما برح الصراع مشتدا فيه بين الامة العربية والخلف الاستعماري اليهودي فى عنف بالغ الخطورة على امتداد اديم الوطن العربي ما بين المحيط الاطلنطي والخليج العربي .

اقول : ادى هذا القانون وظائفه خير ما يكون الاداء فى هذه الحقبة الطويلة ، كما اداها فى الحقب التي سبقته ، واحسب ان اداءه هذه الوظائف حين صار السلطان الى غير العرب او حين تعرض للشر والغزو والعدوان ، لم يصب بعجز ولم يخامره فتور او ضعف ، لان القوة الدافعة التي تعمل فى باطنه لا تغالب ، ولا تنال منها المؤثرات او تهزمها ، لانها تقبس اقباسها ودفعها من مصادر نفسية تتقد جذواتها ابدا ولا يخبو لها اوار ، وربما بدت لنا فى هذه العصور ـ اذا لاحظنا الاعاصير التي تناوحت حولها من داخل ومن خارج فثبتت لها راسخة شامخة ـ اشد وقدا ، واعلى سنا وسناء مما كانت عليه فى دهرها القديم ، وشانها هذا هو شأن النار حين تنكس ، فيرتفع لهبها ، ويشتد وقده وضرامه ، وما اكبر شبهها فى هذا بما شبه به منقذ الامير الشاعر المجاهد قوة عزيمته ، وتابيه ان يلين للايام التي تحاول ان تنال منه ، حين قال :

كم تفض الايام مني ، وتابى همتي ان تنال مني مناها
انا في كفها كجذوة نار كلما نكست تعالى سناها

وكأنه اياها عنى بهذا ، ولم يعن نفسه ، لان القوة التي كان يستشعرها فى نفسه ويغالب بها عوادي البغاة على الوطن العربي ابان حروب المئتين بين الشرق والغرب هي قبس من روح الامة ، وروح الامة هذا هو روح ادبها الحي الخالد ، افرغته فيه افراغا ، وامتزجت به ، فاصبحا متلازمين بالضرورة ، لا ينفصم شيء منهما عن شيء .

والصورة التي اريد ابرازها لهذا القانون ، تتوضح معانيها بتعزيزها بالتمثيل لها ، فهي بدونه تبقى صورة غامضة مبهمة ... غير ان هذا التمثيل يستغرق كتابا ضخما ، وموقفنا يستدعي الاقتضاب والاستقطاب ، لو امكن ان تستقطب سبع مائة سنة فى دقائق .

ومع هذا فانني مضطر ان اقول فى هذا شيئا ، وسأقف عند هذه السبع مائة عام التي هي العصر الوسيط كله وقفة قصيرة لا معدى لي عنها .

وننظر الان كيف صورت اقلام المؤرخين ادبه الذي اجرت عليه هذا القانون الاوربي عند كتابة تاريخه ؟

الصورة السياسية العامة لهذا العصر والاحداث العظمى التي حدثت فيه وتناوشته من شرق وغرب ، كانت هي الاطار الذي وضع الادب العربي فى داخله .

وهي صورة ـ كما نعلم جميعا ـ تتوثب فيها اشباح ذئاب بشرية يقال لها مغول وتتار ، انثالت على الوطن الاسلامي والعربي من اواسط آسيا شرهة نهمة تتحرق من جهل وخرق وغباء ظمأ الى الدم والتخريب والتدمير ، واشباح ذئاب بشرية اخرى يقال لهم الاوربيون ، تتفصد عروقهم عصبية ، وتنزى نفوسهم حقدا وطيشا ، بعضهم يغزون الوطن من اطرافه كما كان من الاسبان فى الاندلس فيطاردون اهله ، ويقتلونهم ، ويفرضون على من استبقوا منهم الردة عن دينهم او الجلاء ، وآخرون منهم يغزون قلبه ويقيمون على ثراه سوق القتال قرنا بعد قرن ، وهم ينثالون عليه موجة اثر موجة من البر ومن البحر ، ليجروا دماء اهليه على ثراه انهارا ، وليبيدوهم ويرثوا ديارهم .

سيطرت اخيلة هذه الصورة الراعبة على اذهان المؤرخين الذين ارخوا الادب العربي ، فذهلوا عن سواها ، ولم يكادوا يبصرون الا سوادها القاتم وظلال اشباحها على الحياة .

وكان أول شيء فعلوه ان سموا هذا العصر الوسيط كله ـ وفيه اجزاء مهمة اختلفت صورتها عن هذه الصورة ـ « العصر المظلم » . وهي تسمية احسبهم نقلوها الى تاريخنا عن المؤرخين الاوربيين الذين اطلقوا تعبير (Dark ages) على فترة من تاريخ اوربا بين انهيار الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادي وبداية عهد الرينسانس (Renaissance) فى القرن الخامس عشر . ولكن هذا العصر ـ فى آماده الطويلة التي تخالفت احداثها واحوالها وصورها السياسية ـ لم يكن كله ظلاما كما تخيلوه ، وتحدثوا عن دوله المتتابعة ـ وهي دول تركية فى الغالب ـ

حديثا مجملا متشابها او يكاد يكون متشابها ، ولم يحاولوا أن يميزوا بين صفاتها ، ويتبينوا مواقف الملوك والسلاطين من العرب والاسلام واللغة العربية ومن العلوم النقلية والعقلية والدخيلة .

وعرضوا للادب في الوطن العربي ، دون الاوطان الاسلامية التي لم تتخل عن الاسلام وعن لغته ، بل خصوا بحديثهم اجزاء منه ، واغفلوا اجزاء اخرى مهمة كانت مباءات له غنية كل الغنى بثرائها منه ، وكانت النفوس فيها ريا من العربية .

فماذا نشأ عن هذا ، وما الاحكام التي انتهوا الى استنتاجها ووسموا بها ادب هذا العصر ؟

نشأ عن هذا اخطاء جمة خطيرة ، من اوضحها هذه الصفات المتشابهة المتماثلة التي اجروها عليه ، ما عرفوه منه وما لم يعرفوه ، وهذا الطابع الباهت الذي طبعوه به وهو يصف ركوده وركود اللغة ركود الموت ، ويغفل الاشارة الى قوته ومصادر هذه القوة اغفالا يكاد يكون تاما .

وجملة الصورة التي رسموها له اراها تمثل صورة انسان خديج ذميم مشوه ، جامد النظرات ، منطمس القسمات ، متغضن الاسرة ، منكمش متقبض كاحدب (نوتردام) او احدب (بغداد) ، عنيت الاحدب الذي ادى صورته الينا شاعر التصوير الابتداعي ابو الحسن بن الرومي في بيتيه المشهورين :

قصرت اخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
واحس ثانية لها فتجمعا

وهو الى ذلك قابع في سرداب بارد رطب مظلم ، لا يلتمع فيه من بارق الا مثل ما يكون في الفترات من نار الحباحب تحت الحندس البهيم .

ذلك ما يرسمه هذا القانون الاوربي الذي ارتضاه مؤرخونا المحدثون من صورة لادب هذا العصر وحياة اللغة العربية فيه كما اتخيلها كلما اقرأ ما كتبوه في ايجازه او تفصيله .

فهل هو كذلك حقا وصدقا ؟

القانون النفسي الحي الذي يحكم اللغة العربية ويقوم الادب العربي به كما اسلفت ، تنفي اجابته عن هذا التساؤل صدق هذه الصورة القائمة على ادب العصر الوسيط وحياة اللغة العربية فيه ، وتكاد ترسم له صورة اخرى مغايرة لهذه الصورة في كثير من قسماتها واوصافها ، ولا اقول : في كل قسماتها واوصافها .

وهي تتسق ، ويتهيأ لها الاستقرار في نصابها التام كلما تناولت هذه الاجابة التاريخ من مختلف جوانبه ، وجرت وراءه تتقصى كليات حوادثه وجزئياتها ، والتمست الرغبات في الطبائع والميول فتدارستها ، وفاءت الى القوانين النفسية التي تعمل عملها الدائب في روح الامة وعقلها ولغتها وادبها جميعا، فجعلتها المحور والاساس لكل ذلك .

وحسبي الان ، وقد طال بي نفس الكلام ، ان ادل على هذا في هذا الموقف .

اما تفاصيل ملامح هذه الصورة التي ستتناولها هذه الاجابة ، وهي تقتضينا متسعا من الوقت لا نملكه في هذه اللحظات ، فأدعها الى وقت آخر ، واكل امر ما قدمت الى العلماء النقاد .